خرافات كريلوف

بقلم
الأستاذ على أدهم

روى الكاتب النقادة ماجر شاك فى كتابه القيم عن الروائى الروسى الكبير تورجنيف أنه فى طفولته أظهر ميلا إلى التسرع فى إصدار الأحكام الطائشة ، واستشهد على ذلك بأن الشاعر الروسى إيفان دمتريف زار الضيعة التى كانت تملكها والدة تورجنيف فى سباسكوى وهو طفل فى السابعة من عمره ، وأرادت الوالدة المعجبة بابنها المفضل أن تظهر لضيفها الأديب ذكاءه الواعد فسألته أن يلقى أمام الشاعر إحدى خرافاته التى حفظها ، وقام تورجنيف بالقاء إحدى خرافات الشاعر المنظومة شعراً ، وأجاد الإلقاء ، ولكنه لم يكتف بذلك ، وشاء له تسرعه أن يصدر حكماً ، فخاطب الشاعر الزائر قائلا « إن خرافاتك لا بأس بها ، ولكن خرافات كريلوف خير منها » فغضبت والدته غضباً شديداً ، وكان جزاؤه على هذه الصراحة الضرب المبرح بعد رحيل الضيف الشاعر .

وبطبيعة الحال لم يكن تورجنيف وهو طفل موفقاً فى اختيار المناسبة لإصدار حكمه فى إيثار خرافات الشاعر كريلوف ، ولكنه مع ذلك قد أصاب الحقيقة ، ونقاد الأدب الروسى يقرونه على هذا الرأى ، ويرون فى كريلوف أكبر كتاب الخرافة فى الأدب الروسى ، وأنه فى طليعة كتاب الخرافة فى الأدب العالمى ، فهو ضريب عيسوب ولافونتين ولسنج وغيرهم من كبار كتاب الخرافة .

وقد ولد إيفان كريلوف سنة ١٧٦٨ فى عهد الملكة كاترين الثانية وكان والده أحد الضباط المغمورين الذين عملوا فى أثناء اشتعال الثورة الكبرى التى تزعمها بيجاشيف ، ومات أبوه وهو فى العاشرة من عمره ، ولكن والدته كانت سيدة حسنة التدبير ، وقد استطاعت بتحريها الاقتصاد فى الإنفاق أن توفر له الحصول على قسط مناسب من التعليم ، وقد سمح له أن يشارك أطفال السادة من الجيران فى دروسهم ، ولكنهم مع ذلك كانوا يشعرونه بأن منزلته دون منزلتهم ، وأرجح أن هذه المعاملة التى لقيها فى إبان نشأته كان لها أثرها الواضح فى إنماء ملكة السخرية التى تجلت بعد ذلك فى أدب كريلوف ، ولكى يزيد فى ميزانية الأسرة عمل على أن يعين فى وظيفة كاتب محكمة فى مدينة تيفر الريفية الواقعة على نهر الفلجا ، واسمها الآن كالنين (وهو اسم أحد رؤساء الحكومة السوفيتية) وكان العمل الذى يباشره عملا رتيباً ، ولذلك كان يشرد فى النواحى المجاورة ، ويتجول فى جانب النهر ويخالط الفلاحين

والنوانى ، ويتعرف لهجاتهم ، وأساليبهم فى الحديث ، وطرائق تفكيرهم ، ومختلف عاداتهم وتقاليدهم ، وقد أكسبه ذلك خبرة مستفيضة ومعرفة صميمة استغلها فيما بعد فى مسرحياته وبوجه خاص فى خرافاته ، ومن تيفر شق طريقه إلى بطرسبرج (لينينجراد الآن) وأخذ يعالج الكتابة ، وبدأت تظهر قدرته على الفكاهة اللاذعة ، والنقد الساخر ، حتى ظفر بإعجاب مفكرين من أجرأ مفكرى عصره ، وهما نوفيكوف أحد رواد الاستنارة فى الثقافة الروسية وراديشيف مؤلف كتاب « الرحلة من بطرسبرج إلى موسكو » المشهور ، وقد أشركاه معهما فى تحرير إحدى المجلات الأدبية ، وكانت الملكة كاترين الثانية قد شجعت النقد الاجتماعى وشاركت فيه ، ولكن حدوث الثورة الفرنسية دفعها دفعاً إلى الإعراض عن ذلك وأغراها بالتشدد فى التزام الموقف الرجعى ، وفجأة نقل نوفيكوف سراً إلى سجن شلوسيلبرج ، ونفى راديشيف إلى سيبريا ، ولقى كريلوف عنتاً شديداً من الشرطة والرقابة ، وقد أشار إلى ذلك فى خرافة « القطة والعندليب » .

وقد استهل كريلوف حياته الأدبية بكتابة مسرحيات ولكن مسرحياته لم تكن مزودة بعناصر البقاء ، وعاش سنوات حياة خاملة خالية من الحوادث الهامة لا يهدف إلى غاية ولا يحاول تحقيق أمل ، ولكنه مع ذلك كان يطيل التأمل فى الأحوال السائدة حوله ، ويغذى الموهبة الكامنة فى نفسه التى جعلته فيما بعد أحد أركان الأدب الروسى ، ومن عجيب أمره أنه لم يهتد إلى ميدان نبوغه الأصيل ومجال تفوقه المنقطع النظير إلا بعد أن ناهز الأربعين ، فقد أدرك حينذاك أن نظم الخرافات هو السبيل الوحيد الذى يستطيع به أن ينقل خواطره وخوالج نفسه إلى الرأى العام دون أن يتعرض لسيطرة الرقابة الصارمة وقسوة الحكم الرجعى ، وقد التزم هذا الأسلوب حتى نهاية حياته فلم يكتب بعد ذلك شيئاً سوى هذه الخرافات التى شاع أمرها فى الأدب الروسى وأقبل عليها القراء من مختلف الطبقات وأصبحت حدثاً من الأحداث التى يشار إليها فى الأدب الروسى .

وقد بدأ بنظم بعض الخرافات المقتبسة من لافونتين ونجح فى ذلك نجاحاً ملحوظاً واختار بعد ذلك للترجمة خرافات فرنسية أخرى ، واقتبس بعض خرافات عيسوب وخرافات من مراجع أخرى ، ولكن بمرور الزمن بدأ هو نفسه يبتكر خرافات ، وقد ترك عند وفاته مائتى خرافة ، أربعون منها مقتبسة من لافونتين وسبع منها استوحاها من عيسوب والخرافات الباقية جميعها من تأليفه ، ومقتبساته من لافونتين تحمل طابع شخصيته مثل الخرافات التى ألفها .

وخرافات كريلوف مثل خرافات لافونتين تتناول الحيوانات والطيور والأسماك والإنسان ، ويلعب الفلاح الروسى فيها دوراً هاماً ، وهى مشبعة بروح الفكاهة والسخرية ، وكاتب الخرافة ناقد ساخر بحكم فنه ، ويتضمن القالب الفكاهى الذى تظهر فيه الخرافات النقدات اللاذعة والطعنات الخفية المصميات ، وتتناول خرافات كريلوف ما كان فى الحياة الروسية السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية من جوانب النقص والمساوئ المتفشية .

وكريلوف مثل سائر كتاب الخرافة هجاء بارع ، وساخر لاذع ، وناقد بصير ، تلمح عينه الفاحصة ما فى الحياة من عيوب ومتناقضات ، ويسلط عليها سخريته الخفية ، وغمزاته المستورة التى تغيب عن فطنة الرقيب ، وتحتمل التأويلات المختلفة ، وقد اتفق مرة أن دعاه القيصر الطاغية نيقولا الأول (١٨٢٥ إلى ١٨٥٥) ليسمعه آخر خرافة نظمها فاغتنم كريلوف الفرصة وألقى على مسامع القيصر إحدى خرافاته التى منعها الرقيب ، فأعجب بها القيصر وأمر الرقيب بإجازتها .

وقد انبثق فجر الأدب الروسى الحق فى مستهل القرن التاسع عشر وفى مطلع حكم القيصر الغامض

الإسكندر الأول (١٨٠١ إلى ١٨٢٥) وكان الأدب الذى بدأ يثبت وجوده ويفرض نفسه ويؤتى ثمراته متأثراً إلى حد كبير بالأحداث العامة ، وكانت الأحداث العامة فى روسيا حينذاك شديدة الصلة بالحوادث الجارية فى غرب أوروبا ، وكان ذلك العصر عصر الحروب النابليونية ومغامرات نابليون وأطماعه غير المحدودة ، وكان للهزائم التى أوقعها بالجيوش الروسية بعد أن ذاعت انتصارات القائد الروسى سواروف وقع شديد فى نفوس الروسيين آثار ثائرتهم وهز ثقتهم بأنفسهم ، ولما غزا نابليون روسيا فى سنة ١٨١٢ أشعل هذا الغزو حماسة الروسيين وحرك فيهم العاطفة القومية ، وقد انتهت المعركة بتقوية الوحدة القومية ويقظة الروح الوطنية ، وخرجت روسيا من المعركة أصلب عوداً وأقوى عزيمة ، وقد أجاد القيصر الإسكندر تمثيل دوره وظهر بمظهر المدافع عن القومية الروسية .

وقد أيقظ فى مطالع حكمه الآمال العظيمة فى الإصلاح والنهوض والسير فى سبيل التقدم والحرية ، وكان أستاذه المفكر السويسرى لاهارب قد غرس فيه النزوع إلى الحرية وحب الحق والإنسانية ، وظلت هذه المطالب مثله العليا المنشودة ، ولكنها كانت فى نفسه غامضة مضطربة ، فلم تثمر ثمرتها المرجوة ، وقصرت به عن الغاية المبتغاة ، ولذلك أخفقت محاولاته ووقع فى أواخر عهده تحت تأثير السياسى النمساوى الرجعى المعروف مترنخ والوزير الروسى المريب المكروه أركشيف ، وأخذ ضميره يؤنبه لاشتراكه إلى حد ما فى المؤامرة التى سبق أن دبرت وأسفرت عن قتل أبيه القيصر بول وارتقائه العرش ، كما أصابته بعض الكوارث العائلية التى زادت نفسه ارتباكاً وأشاعت الاضطراب فى حياته من جميع نواحيها ، وقد أدى ذلك كله إلى انتصار الرجعية فى روسيا وتوقف حركة التقدم ، ولكن مشاركة الروسيين فى الأحوال السياسية الأوربية واحتكاكهم بالغرب فتحا النوافذ التى تسرب منها الضوء .

وقد أطلق الإسكندر فى أوائل حكمه حرية الصحافة والفكر ، وكان الشاعر كريلوف فى طليعة من أفادوا من ذلك ، وهو يعد أول شاعر روسى له أثر واضح فى الحركة القومية والنهضة الأدبية ، على أن حياة كريلوف الخارجية كانت خالية من الحوادث الهامة والمواقف المأثورة ، وكان فيه من الفلاحين الروسيين كراهة الحركة والميل إلى الإبطاء والتأنى ، ولم يكن فى الحياة شىء يستحثه إلى الإسراع والحركة والنشاط ، وقد عين حيناً من الزمن موظفاً بمكتبة بتروغراد العامة ، فكان يقوم بواجباته فى غير اكتراث وفى يسر وسهولة ، وكان يرتدى جلباباً فاذا أراد أحد الزائرين استعارة كتاب أشار كريلوف إلى الرف الموضوع عليه الكتاب وترك للمستعير حرية استحضاره ، ويروى عنه أنه كان يقضى أكثر وقته فى داره مستلقياً على إحدى الأرائك ، وفى ذات يوم استرعى أحد أصحابه نظره إلى أن المسمار المعلقة به إحدى الصور الموضوعة فوق الأريكة التى كان مستلقياً عليها غير مستقر فى مكانه وأن الصورة قد تقع فوق رأسه ، ونصح له بالتحول عن مكانه ، فأجابه كريلوف دون أن يتحرك من مكانه « كلا يا سيدى أن الصورة ستقع خلف الأريكة وأنا أعرف زاوية اتجاه الصورة » وهذا التبلد الذى كان مستولياً على كريلوف هو كسل رجل قد استحال ذهناً مفكراً ونفساً حساسة ، فهو لا يشعر بميل إلى معالجة أى ضرب من ضروب العمل والحركة ، ويحب أن يخلى ما بينه وبين الاسترسال مع التفكير والاستغراق فى التأمل .

وقد لقيه الروائى الروسى الكبير تورجنيف فى سنة ١٨٣٩ وقدم لنا صورة موجزة له ، ولكنها على إيجازها واضحة المعالم كثيرة الدلالة ، قال « رأيت كريلوف مرة واحدة ، وذلك فى حفل أقامه مؤلف فى بطرسبرج

سامى المقام ولكنه ردئ التأليف ، وقد جلس صامتاً أكثر من ثلاث ساعات بين نافذتين ، ولم ينطق ببنت شفة ! وكان يرتدى سترة رسمية سوداء بذيل فضفاضة رثة ورباط رقبة أبيض اللون وزوجاً من الأحذية فى قدميه الضخمتين تتدلى منهما زراير ، وقد وضع يديه على ركبتيه ولم يحرك رأسه الضخم الفخم ولا مرة واحدة ، وكل ما فى الأمر أن عينيه كانتا من الحين إلى الحين تدوران تحت حاجبيه البارزين ولم يكن من الميسور أن تعرف هل هومصغ للأحاديث الدائرة وشاعر بما حوله أو هو يجلس غير مكترث وكأنه فى عزلة ، ولم يكن هناك أى أثر للنعاس أو التنبه فى ذلك الوجه العريض الروسى الإنموذجى — لم يكن هناك سوى قدر ضخم من الذكاء والكسل الذى أصبح داء عياء ، ومن الحين إلى الحين كانت تهم بالظهور على وجهه سمات الدهاء البالغ ولكنها لم تكن تستطيع — أو ربما لم تكن تريد — أن تبدو خلال هذه الشيخوخة المترهلة . . وأخيراً قال له مضيفنا إن العشاء قد أعد ، وأضاف مظهراً الاهتمام الشديد قائلا « لقد جهزنا لك خنزيراً رضيعاً ومرق الفجل البرى » وكأنه كان يقوم بأداء واجب لا مفر من القيام به ، فنظر إليه كريلوف نظرة منطوية على الود والسخرية وكأنه كان يقول لنفسه « ألم تقل خنزيراً رضيعاً ؟ » وقام متثاقلا يدلف ليجلس فى مكانه حول المائدة !

وطلب منه صاحب المنزل الذى كان يقيم به أن يمضى اتفاقاً يدفع بموجبه مبلغاً ضخماً إذا احترقت الشقة التى يسكنها فأضاف إلى المبلغ المكتوب فى الاتفاق عدة أصفار قائلا إنه إذا كان فى مستطاعه أن يدفع المبلغ الأول فهو كذلك يستطيع دفع المبلغ الأخير !

وقد توفى كريلوف سنة ١٨٤٤ وقد أقيم له تمثال فى « حديقة الصيف » فى بطرسبرج ، ويعد كريلوف رائداً سباقاً فى الأدب الروسى ، قال عنه بوشكين « إنه أكثر شعرائنا وطنية وأعظمهم شعبية » وتحمل خرافاته طابع الحداثة التى لا يذهب بها القدم والطرافة التى لا يعفى عليها ظهور المذاهب الجديدة فى الأدب والابتكارات المتنوعة ، وهى تمثل الواقعية الروسية وتبدو من خلالها الحياة على حقيقتها ، ويقول عنه الكاتب الإنجليزى الناقد الذواقة موريس بيرنج « إنه يملك الطلسم الذى يتحدى النقد ويعجز التحليل ويهزم الزمن وذلك الطلسم هو الفتنة ، وقد ظفرت خرافاته بتقدير الرأى العام حين ظهورها ولم يفتر الاهتمام بها حتى اليوم » وكانت الأطفال يحفظونها عن ظهر قلب وهم صغار فاذا تقدمت بهم السن ازدادوا لها فهماً وتكشفت لهم معانيها الخفية وأهدافها الإنسانية ، وبعض الطرز التى يصفها كريلوف موجودة فى كل زمان ومكان ، من أمثلة ذلك خرافة « وباء الحيوان » وهى تمثل ميل البشر إلى اغتفار ذنوب الأقوياء وغض الطرف عن عيوبهم والإنحاء على الضعفاء والمبالغة فى تكبير أخطائهم ، فقد انتشر الوباء وتفشى فى الغابات وهو أقسى العقوبات الإلهية التى تحل بالحيوان ، وساد الرعب فى عالم الحيوان وعم الاضطراب وأخذ الموت يتخطفها فى السهول والجبال والأخاديد والغيران والأدغال والأجمات ، وكأنما فتحت الجحيم أبوابها لتلتهمها على اختلاف أنواعها وتباين طبقاتها ، وكانت جثث ضحايا الوباء متناثرة على الصعيد ، ويد الموت تحصدها حصداً بمنجله ، وتلقاء هذه النكبات المتوالية والضربات القاصمة بلغ منها الخوف كل مبلغ وأصبح الذئب ورعاً متواضعاً تواضع الرهبان ، وأمنت شره الحملان ، واستطاع الدجاج أن ينام فى أمن وسلام ، وصامت الثعالب فى أوجارها الموحشة ، وزهدت فى تناول الطعام ، وهجر الحمامة أليفها وأعرض عن مبادلتها أحاديث الحب والغرام ، وإذا اقفرت القلوب من الحب فمن أين تدخلها الفرحة ويأتيها الابتهاج ؟

وفى أثناء هذه الكارثة المروعة دعا الأسد إلى عقد اجتماع عام وجاءت الحيوانات من كل فج عميق ومكان

بحيق وقد نال منها الإعياء وبرحت بها الأسقام ، وأحاطوا بماكهم دون تحية أو سلام ، واشرأبت أعناقهم ، وتطلعت أبصارهم ، وأرهفت آذانهم ، وهم يحاولون استماع كلمات الأسد ، وقد استهل خطابه بقوله « أيها الأخوان إن الذنوب التى ارتكبناها ولم نكفر عنها والمخالفات التى تورطنا فيها والجرائم التى اقترفناها قد أغضبت الرب فحلت بنا نقمته ، ونزلت بنا المكاره ، وليس هناك من سبيل لدفع هذا الأذى ، ورفع هذا الغضب ، إلا أن يتقدم أكثرنا ذنوباً بمحض اختياره ليضحى بنفسه ، ونقدمه قرباناً ، فقد يرضى ذلك الآلهة فترفع عنا مقتها وغضبها وتشملنا بعطفها ورعايتها ، وجميعكم تعرفون أنه مما يسر الآلهة وتعده دليل سلامة العقيدة وصحة الإيمان أن تقدم لها الضحايا والقرابين ، والتاريخ حافل بالشواهد التى تدعم قولى ، وعليكم الآن أن يجهز كل منكم بالاعتراف بآثامه سواء أكانت بالقول أم بالعمل ، فاعترفوا أيها الأخوان بذنوبكم وكفروا عنها ، ولست أعفى نفسى مما أطالبكم به فانى أصارحكم والأسى يملأ جوانحى بأنى من الخاطئين ، فطالما سطوت على صغار الحملان وافترستها بدون رحمة ، ولم أتورع فى بعض الأحايين عن الفتك بالراعى والاغتذاء بلحمه ومن منا لم يقدم على الكبائر واجتراح الآثام ؟ وها أنا ذا لا أمسك عن تقديم نفسى راضياً مسروراً ، ولكنى أرى من الخير قبل كل شىء أننا جميعاً نحصى آثامنا ، ونعد سقطاتنا ونقدم للضحية أثقلنا أوزاراً ، وما من شك فى أن هذا سيرضى الآلهة ويكف عنا أذاهاوشرها » .

فلما أتم الأسد القاء كلمته تقدم الثعلب وخاطب الملك قائلا « يا مليكنا النبيل ، لقد حداك فرط نبلك على الاعتراف ببعض المخالفات ، وحينما أدنت نفسك وعددت أمثال هذه الأعمال من قبيل الآثام شعرنا جميعاً بوخز الضمير ، ولو انا عددنا أمثال هذه الصغائر من الأثام لما استطعنا البقاء وهلكنا جوعاً ، وفضلا عن ذلك فإنى أؤكد لك يا مليكنا المحبوب أنه مما يشرف الخراف ويرفع من قدرها تنازل السباع إلى أكل لحومها ، أما الرعاة فإنه مما تلح فى التماسه أن نلقنها من الحين إلى الحين درساً فى التواضع ، لأن أفراد هذه السلالة المحرومة من الذنب قد ملأها الغرور وخيل لها الوهم أنهم السادة المتحكمون فى رقابنا ! » .

وبعد أن ألقى الثعلب كلمته تبارت سائر الحيوانات فى الإشادة بفضائل الأسد وخلو حياته من الشوائب ونبالة أهدافه وأنه ليس فى حاجة إلى طلب الغفران أو تقديم أى قربان .

وتقدم بعد ذلك النمر والدب والذئب واعترفوا جميعاً بأنهم ارتكبوا بعض الهفوات الهينات ، ولم يذكروا مخالفاتهم الجسيمة ، ولم يشر أحد إلى جرائمهم الفظيعة ، وهكذا فى هذا المؤتمر لم يكتف بتسويغ جرائم الحيوانات ذوات الظفر والناب بل أسبغت عليها القداسة ، وعدت من الفضائل الباهرة والمزايا النادرة .

وجاء الثور المتواضع طالباً الاعتراف بآثامه ، وقال إنه منذ خمس سنوات وفى فصل الشتاء وقد نفد ما فى الأهراء والمستودعات وبرح به الجوع أغراه الشيطان بمخالفة القانون ، فبعد أن ظل طوال اليوم دون أن يدخل جوفه شىء اجترأ على انتزاع حزمة من الدريس الذى كدسه راعى الكنيسة ، وما كاد الثور يتم كلماته حتى انفجرت الوحوش تولول وتصرخ وصاحت النمور والذئاب والدببة قائلة « ها قد اهتدينا إلى المجرم الأثيم ، هذا الذى سطا على كومة الدريس وانتهب منها حزمة ! لقد سولت له نفسه الخبيثة أن يأكل دريس غيره من الناس ، فلا عجب إن كانت الآلهة تعدنا آثمين لأننا لم نكفر عن الجرم الفظيع ! إن هذا الكافر الذى يحمل فى رأسه قرنين هو الذى نقدمه ضحية للآلهة تكفيراً عن ذنبه ، وتقرباً للآلهة ، والتماساً لصفحها عنا ، وقطعاً لدابر هذا الوباء الذى أهلكنا » .

وأيدت سائر الحيوانات هذا الحكم وأقرته واقتيد الثور إلى المذبح ليلقى منيته عقاباً له على التهام حزمة الدريس !

ويعقب كريلوف على هذه الخرافة بقوله « وهكذا في أحوالنا نحن البشر أرق الناس حاشية وأبعدهم عن ارتكاب الآثام هو الذى يوجه إليه اللوم وتكال له التهم ! »

وفى خرافة « الأسد والثعلب » يصف لنا كريلوف الألفة التى تزيل الخوف ، وتبعث الطمأنينة فى النفس ، فان الثعلب لم ير الأسد من قبل ولم يكن له به سابق عهد فلما رآه بعينى رأسه أول مرة هاله الأمر ، واستولى عليه الفزع ، واعتقد أن منيته قد حانت ، والتقيا بعد فترة وجيزة ، فلم يبد الأسد للثعلب رهيباً مخيفاً كما رآه أول مرة ، وفى اللقاء الثالث تقدم الثعلب من الأسد وبدأ يجاذبه أطراف الحديث ،وفى خرافة المفترى النمام والثعبان يقول كريلوف إنه من السخف أن نزعم أن الشياطين لا تعنى بالعدالة ، ويؤكد أنهم طالما أثبتوا ميلهم إلى اقرار العدل وتحرى الانصاف ، ويستشهد على ذلك بمثل حدث أخيراً ، فقد تجمعت قوى الشر وانتظمت صفوفاً ، وكان من السائرين فى ذلك الموكب الحافل المفترى النمام والثعبان ، واحتدم بينهما الخلاف حول مسألة أيهما يتقدم على الآخر ومن منهما له حق الأسبقية والأولى بالتقدم فى موكب الشرور هو الأقدر على الأذى ، والأعرف بطرق الأضرار بالناس ، وأراد المفترى النمام أن يسكت خصمه ويقطع حجته فبسط لسانه المسموم فكشف الثعبان عن سلاحه فى اللدغ الذى يفخر به وفح قائلا إنه لا يقبل مثل هذه الإهانة ، ولا يستطيع السكوت عنها ، وتقدم ليسبق المفترى النمام ، وبدا أن المفترى النمام قد خسر القضية ، ولكن إبليس لم يرض ذلك وتدخل فى الأمر ، وأمر الثعبان بالارتداد إلى الوراء ، وخاطبه قائلا « إنى أقدر كفايتك وأعلم أنك جدير بالمثوبة ، ولكنى أراه أحق منك بالتقدم ، فأنت من غير شك شرير ولدغتك قاتلة لمن يقترب منك ويندر أن تخطئ فريستك ، وأنت تلدغ حتى من لا يريد بك شراً وهذا ليس بالقليل ، ولكنك لا تستطيع أن تدعى لدغ من كان بعيداً عنك ، أما لسان المفترى النمام فانه يتخطى السهول والجبال ويعلو الأمواج ولا يعصم منه بعد الشقة ، فهو أقدر منك على الحاق الضرر ، ولذا أرجوك أن تتواضع وتعرف قدرك وتتركه يتقدم عليك فى صفوف الموكب » ، ويقول كريلوف إنه منذ ذلك اليوم المشهود والثعابين لا تجسر أن تتقدم على النمامين المفترين .

ومن أمثلة الخرافات التى اقتبسها من عيسوب ولكنه أضفى عليها شخصيته وطبعها بطابعة الروسى أسطورة « المزارع والموت » وهى ترينا فرط تعلق الإنسان بالحياة حتى فى أقسى الظروف وأحفلها بالمتاعب والآلام على حد قول المتنبى .

وإذا الشيخ قال أف فما مل حياة وإنما الضعف ملا

فقد كان المزارع الهرم يحمل فوق ظهره حملا ثقيلا من الحطب فى صبارة الشتاء وبهظه الحمل واشتد به الكلال ، فكان يتعثر فى خطواته ، ويئن متوجعاً ، ويتنهد محزوناً ، ويجر قدميه جراً قاصداً كوخه المظلم القاتم ، وطوى عدة أميال وهو يعانى أعباء حمله حتى أجهده السير ، فألقى حمله على الأرض ، وجلس فوقه ليستريح ، وأخذ يفكر فى الشقاء الذى يكابده ، وناجى ربه قائلا « ما أتعس حظى وأشد شقائى يا رب ! فلست أملك قطميراً ، وعلى أن أعول زوجة وأطفالا صغاراً ، وعلى أن أدفع إيجار الأرض وأؤدى ما على من دين لمولاى ، وأسدد الضريبة تلو الضريبة التى تطالبنى بها الدولة ، وقد توالت أيام حياتى دون أن أعرف يوماً سعيداً ، ولعن حظه ، وناشد الموت أن يقبل ويخلصه من هذه الآلام ، ولم يكن الموت بعيداً عنه ، بل كان على مقربة منه ، وسرعان ما ظهر له الموت قائلا « لماذا دعوتنى أيها الشيخ الهم ؟ » .

فلما لاح له الموت فى صورته الشامخة المتعالية ووجهه المنذر الرهيب تملكه الخوف ولم يحر جواباً ، وبذل جهداً ليسترد نفسه ويقول متلجلجاً « إنى لم أدعك لأغضبك أيها الموت ، وإنما دعوتك لأتوسل إليك فى أن تساعدنى على وضع هذا الحمل فوق ظهرى ! » .

ويقول كريلوف فى تعليقه على هذه الخرافة « وهكذا نرى من هذه الخرافة الموجزة أن الحياة ولو أنها ملأى بالشقاء فإن الموت مع ذلك أكثر بؤساً وأشد وقعاً » .

ويلاحظ كريلوف أننا حين نمدح غيرنا ونشيد بمواهبه إنما نقصد بذلك الثناء على أنفسنا من وراء ذلك ، وقد نظم خرافة « الفيل المقرب » ليوضح وجهة نظره .

فقد ذاع فى مختلف الأوساط وبين العارفين بمجارى الأحوال أن الفيل أصبح مقرباً فى البلاط وملحوظاً بعين الرعاية ، وبدأ الجميع يفكرون ويكدون خاطرهم لمعرفة الطرق التى سلكها الفيل حتى ظفر بالحظوة ، فهو ليس مقبول الصورة ولم يشتهر بالذكاء والألمعية ، ولم يعرف يوماً ما قط برقة الشمائل وحسن التصرف ، وبدا لهم الأمر غريباً مثيراً للدهشة ، فقال الثعلب « لو كان للفيل ذنب رقيق الحركة كثير الوبر لعرفنا السبب الذى من أجله نال الحظوة وظفر بالتقدير » .

وقال الدب « لو كان له مخالب لعرفنا السبب وزال العجب ، ولكننا جميعاً نعرف أنه ليس له مخالب » .

وقال الثور المتواضع « ربما كانت أنيابه هى الوسيلة التى وثبت به إلى هذه المكانة الشماء وربما خالوا أنيابه قروناً ! » .

وقال الحمار وقد حرك أذنيه الكبيرتين « أليس بينكم من يستطيع أن يعرف كيف اجتذب الفيل القلوب ؟ لقد أدركت السر واهتديت إلى الحقيقة من أول وهلة ، فبدون أذنيه الكبيرتين لم يكن فى وسعه أن يغتنم الفرصة وينال الحظوة » .

ويتبع كريلوف هذه الخرافة بقوله « ربما لا نلحظ ذلك ، ولكننا على اختلاف أساليبنا فى مدح الناس إنما نمدح أنفسنا » .

وفى خرافة « الشلال والجدول » يقول كريلوف « خاطب الشلال الهادر الذى تدفعت غواربه بين الصخور فى ترفع وكبرياء الجدول المجاور له الذى كانت الناس تستشفى بمياهه على ضآلة حجمه وصغر شأنه قائلا « ما أعجب أمرك ! إنك ضئيل الحجم قليل المياه ومع ذلك يقصدك علية القوم وأثرياؤهم ! لو أنهم جاءوا إلى لعرفت السبب ولكن بالله ما الذى يحدوهم على قصدك ؟ فأجابه الجدول الهادئ الرزين « إنهم ينشدون الشفاء » .

وبعض الحمقى يزين لهم الغرور أن يفخروا بعيوبهم البارزة مما يبعث على السخرية بهم والشك فى سلامة عقولهم ، وقد وصف حالهم كريلوف فى خرافة « أبيلس والجحش » فقد لقى أبيلس — وهو أشهر المصورين اليونانيين القدامى — جحشاً ودعاه فى الليلة نفسها إلى تناول الشاى معه ، وقد ملأت هذه الدعوة نفس الجحش سروراً وزهواً ، فأخذ يتبختر فى نواحى الغابة ويضجر كل من يلقاه بقوله إن أبيلس يكثر من التقرب منه ويثقل عليه حتى قد أمله فرط الحاحه ، وكان يقول عن أبيلس « إنه كلما لقينى يقبل على ويلح فى دعوتى إلى تناول الشاى معه ، وإنى على ثقة من أنه يريد أن يتخذنى أنموذجاً لتصوير البراق » واتفق مرة أن كان أبيلس قريباً منه وهو يردد مثل هذا القول ، فلما سمعه اقترب منه وقال له « كلا ! إنى مشغول بعمل صورة للعقوبة التى حلت بالملك[1] ميداس ، وأنت على ما يبدو لى فخور بأذنيك الطويلتين ، ويسرنى قدومك

(١) الملك ميداس بن جورديباس من ملوك الأساطير اليونانية وقد اشتهر بثرائه الجم وقد دعى مرة للتحكيم بين بان إله الرعاة وبين ابولو أحد الآلهة الأقوياء الشديدى العقاب ، وقد أصدر حكما فى صالح بان وأغضب ذلك ابولو فمسخ أذنيه وجعلهما فى طول أذنى الحمار

لتناول الشاى معى ، والحمير ذوو الآذان الطويلة ليسوا قليلين ، ولكن أذنيك فى طولها لم أجد لها نظيراً لا بين كبار الحمير ولا بين صغارها » .

وفى خرافة « السيد العظيم » يشير كريلوف إلى كبار الموظفين الذين لا ينقضون ولا يبرمون شيئاً ويكتفون بالاعتماد على صغار الموظفين الذين يعملون تحت سيطرتهم ويصدق عليهم المثل العامى الذى يقول « الاسم طوبة والفعل أمشير » .

ففى سالف الزمان كان هناك إنسان سامى المقام من ذوى الأخطار ، فلما توسد التراب بعد أن كان ينام على الخز والديباج سئل عن المنصب الذى كان يشغله والأمة التى ينتمى إليها ، فأجاب قائلا إنه ولد فى إيران وإنه كان أحد مرازبة الفرس ، ولكن لما كان لا يتمتع فى حياته بصحة جيدة فقد ترك زمام الأمور فى يد مدير مكتبه ، ولما سئل عما كان يفعله أجاب قائلا إنه كان يأكل ويشرب وينام ويكتفى بالتوقيع على الأوراق التى تقدم له ، فقال الإله ايكاس — أحد آلهة اليونان الذين اشتهروا بالعدالة والتقوى — « انقلوه إلى الجنة » ، فلم يستطع الإله ميركرى — إله التجار واللصوص عند الرومان — أن يملك نفسه وصاح قائلا « هذا فظيع ! إنى أحتج على ذلك » ، فرد عليه الإله ايكاس قائلا « أنك يا بنى لا تصلح لتكون فى زمرتنا ، ولقد غاب عن فطنتك أن هذا المرزبان كان رجلا أحمق ! وقد كان واسع النفوذ مبسوط السلطان ، فلو أنه أساء الحكم فى الكور التى كمها لحاقت بالناس الأضرار وجل خطبهم ، ولكنه كف يده عن العمل ، وترك زمام الأمور فى يد غيره ، ولهذا أوصيت بحمله إلى الجنة » .

ويعلق كريلوف على هذه الخرافة بقوله « لقد جئت تواً من المحكمة ، وقد راقبت القاضى ، وفى اعتقادى أنه سينقل مباشرة إلى الجنة ! » .

وفى خرافة « الفلاح والشاة » يشير كريلوف إلى فساد الأحوال الداخلية فى روسيا ، ومساوئ القضاء بها ، فقد توجه الفلاح إلى المحكمة وقدم شكوى يتهم فيها شاة بالتهام دجاجتين من دجاجه ، وكان الثعلب هو الجالس فى كرسى القضاء ، وبدأ المدعى يوضح بينته ، ويدلى ببرهانه ، وأخذت الشاة فى الانكار والتنصل من التهمة ، وقال الفلاح « إنه فى اليوم العاشر من شهر مايو افتقد دجاجتين ، ورأى بعد ذلك ريشهما وعظامهما ملقاة على الأرض ، ولم يكن بفناء الدار فى ذلك اليوم سوى الشاة ، وقالت الشاة إنها نامت طوال الليل ملء جفنيها ، وطلبت استدعاء الجيران ليشهدوا بحسن سيرتها ونصاعة سمعتها ، وأنها لم تتهم قط بالسرقة أو بالغش والتزوير ، وأنها لم تذق فى حياتها لحم الحيوان أو الطير .

ونطق الثعلب بالحكم ، ونصه أن الشاة قدمت حججاً غير مقبولة على ما بها من طلاء وزخرف ، وأن الأشرار بارعون على الدوام فى إخفاء آثار جرائمهم وتلفيق الحجج فى الدفاع عن أنفسهم ، وقد توافرت الأدلة على أن الشاة كانت فى الفناء مع الدجاجتين فى يوم وقوع الحادث ، ولحم الدجاج شهى لذيذ ، وليس مما يزهد فيه والأحوال جميعها مواتية والفرصة سانحة وقال الثعلب إنه إنما يصدر عن ضميره إذا زعم بأن الشاة لم يكن فى وسعها أن تقاوم رغبتها فى التهام الدجاجتين ، فالشاة من أجل ذلك وبناء عليه محكوم عليها بالاعدام ، والحكم مشمول بالنفاذ فى التو واللحظة ، على أن يبقى لحمها فى المحكمة ويعطى الجلد للمدعى .

ولم يعف كريلوف الرقابة على المطبوعات من سخريته ، فقد أفرد لها إحدى خرافاته ، وهى الخرافة المعروفة بخرافة « القطة والبلبل » وذلك أن البلبل وقع فى قبضة القطة ، فأنشبت فيه مخالبها ، وهمست فى أذنه بعد أن ضغطته ضغطة يسيرة جعلته يئن ويتلوى من الألم قائلة « طالما سمعت يا بلبلى العزيز من أفواه الناس فى كل مكان الثناء الجم على صوتك المطرب الرخيم ،

وهم يوازنون بين موسيقاه الشجية وأحسن أنواع الموسيقى ، وحديث صديقى الثعلب لا يذهب باطلا ، فقد أنبأنى أن لك صوتاً عذباً ندياً يشوق السمع ، ويشجى القلب ، وأود أن أمتع سمعى بغنائك الجميل وصوتك الرنان ، فلا ترتعد يا صديقى ، ولا تثرن غضبى ، أتظننى أريد أن ألتهمك ؟ كلا ، إنى لا أريد بك سوءاً ، ومتى أسمعتنى غناءك أطلقت سراحك لتجوب البلاد وتطير من شجرة إلى شجرة ، وأنا مثلك صبة بالموسيقى كلفة بالغناء » .

ولكن الطائر المسكين كان ينتفض هلعاً ، ويترنح جزعاً ، وتكاد تحتبس أنفاسه وهو فى مخالب القطة .

فقالت له القطة « ما بك ؟ وماذا أصاب صوتك ؟ غنى ولو أغنية واحدة ! » ولكن الطير لم يقو على الغناء وإنما نشج وتوجع .

فقالت القطة ساخرة متهانفة « أهذا هو الذى يملأ أرجاء الغابة سروراً وابتهاجاً وغناء جميلا ؟ لقد خيبت ظنى فى الاستمتاع بغنائك ، ولأجرب الآن فلعلك فى لهواتى أشهى طعماً وألذ مذاقاً » .

وسرعان ما اختفى مغنينا الصغير بين لهواتها .

ويشير إلى الطريقة البيروقراطية فى اختيار الموظفين للمناصب التى لا يحسنون العمل بها فى خرافة « الوقوق والعقاب » ، فقد وقع الاختيار على الوقوق ليقوم بعمل العندليب ، وبدأ الوقوق مباشرة عمله بأن استكن فوق إحدى الأشجار وأخذ فى التغريد ليمتع كل من فى الوادى بأغاريده ، ولكنه أدار الطرف فيما حوله فألفى الطيور تلوذ بالفرار ، وشرع بعضها فى التهكم عليه والزراية به .

وساء ذلك الوقوق ونال منه ، فذهب إلى ملك الطيور شاكياً ليتولى تأديبها وخاطبه قائلا « يا ملك الطير لقد شاءت إرادتك أن أكون عندليب الغابة بأسرها ، ولكن الطيور تتضاحك على، وتستهزئ بى ، ولا يروقها غنـائى » .

فأجابه العقاب ملك الطير « إنى يا صاح ملك الطيور ولكنى لست ملكاً على الطبيعة ، وسلطتى تقف عند هذا الحد ، وقد أرغم الطير على أن تدعوك عندليباً ولكن مما يتجاوز قدرتى أن أصنع من الوقوق عندليباً » .

ويصف لنا كريلوف الكوارث التى قد تحدث من جراء اختيار بعض الناس للقيام بأعمال لا يحسنونها مع توفر حسن النية والسمعة الطيبة ، وذلك فى أسطورة « الحمار والقروى » فقد كان للقروى بستان حافل بأشجار الفاكهة وطيب الثمار ، وكانت الغربان والعصافير لا تنى تشن عليه الغارات ، ولم يجد القروى من هو أعف يداً وأكثر أمانة من الحمار ، فهو لا يعرف السرقة ولا الاختلاس ويستطيع أن يطمئن إليه ويثق به ويأمن جانبه ، ولن يقول إنسان بعد ذلك إن البستان معرض لنهب الطيور وغاراتها الشعواء لأن الحمار سيتولى الحراسة ويؤدى الواجب .

ولكن برغم ذلك ساءت حالة المحاصيل ، فقد كان الحمار لا ينفك عن التجوال فى أنحاء البستان ليطارد الطير ويدفع غاراتها ، ولكنه فى أثناء قيامه بهذه المطاردة كان يدوس على أحواض الزرع ويطأ الأزهار ويتلف الفاكهة ، ووجد القروى أن البستان قد عاث فيه الفساد ، فحمل هراوته وأوسع الحمار ضرباً .

وقد يقول القائلون إنه كان على الحمار أن يرفض القيام بعمل لا يحسنه !

ويقول كريلوف « إنه لا يبرر عمل الحمار وقد نال العقوبة التى يستحقها ، ولكن ألا نرى أن القروى أحق باللوم لأنه عهد إلى الحمار فى القيام بعمل لا يحسنه ؟ » .

وفى خرافة « الأوراق والجذور » يرمز كريلوف إلى العلاقة بين السادة فى المدن والمزارعين فى الأقاليم ، ففى أحد أيام الصيف الرائعة وفى واد ظليل همست أوراق الأشجار للنسيم تفخر بنضارة ألوانها وثقل عناقيدها وسألته هل وقعت عينه فى الوادى على منظر يعادلها فى الجمال أو يساميها فى البهاء والجلال ، واسترسلت

فى الفخر قائلة إنها هى التى تخلع على الأشجار الجمال وتكسوها بالخضرة التى تخلب الأنظار وتشيع الابتهاج فى النفوس ، ولولاها لكان الوادى خالياً من الفتنة سليباً من الجمال ، وسألته هل تلام إذا تحدثت عن ألوانها الساحرة وفاخرت بحسن رونقها ، ومضت تقول « ألسنا نحن اللواتى يستظل بهن المحبون فى حمارة القيظ ويأنس ببرد ظلالها عابر السبيل ، إن منظرنا الأخاذ هو الذى يجتذب بنات القرية . ويغريهن بالرقص فوق البساط الأخضر ، وعندنا فى وقت طلوع الشمس وحينما تميل للمغيب ترسل العنادل أغاريد هاالشجية ولا يهوى النسيم شيئاً كما يهوى مداعبتنا » .

ولم تكد الأوراق تنهى حديثها حتى انبعث صوت متواضع من جوف الثرى يقول فى لهجة بعيدة عن الفخر والادعاء « قد يسمح لكن وقتكن بأن توجهن إلينا كلمة شكر وتقدير » .

فاهتزت الأوراق وقالت « من هذا الذى بلغت به القحة إلى حد مصارحتنا بتذمره ؟ ومن أنت أيها المدعي هذا الحق والمتطلع إلى مساماتنا ؟

فأجابت الجذور « نحن الذين لا ننقطع عن الحفر فى الأعماق بعيداً عن ضوء النهار لكى نبقى على حياتكن فهل تجهل ذلك الأوراق ؟ إننا جذور الشجرة نفسها التى أنمتكن فافخرن ما شاء لكن الفخار ولكن ضعن ذلك دائماً صوب الأنظار ، واعلمن أنه متى أقبل الربيع ستهتز مع النسيم أوراق أخرى بدلا منكن ، ولكن إذا ذبل جذر من الجذور أو أصابه مكروه تهاوت الشجرة من عليائها وأصابكن ما أصابها »

وتناوله مرة ناقد سليط اللسان فرد عليه كريلوف بهذه الخرافة وعنوانها « الخنزير » فقد أفلت الخنزير من باب الحظيرة الواقعة خلف دار سيده وألقى نظرة على المطبخ وطاف بالزرائب وتمرغ فى الأقذار والأوحال وغاص فى المياه الراكدة حتى أشبع ميله إلى التقلب فى الأوساخ ، ولم تعد به رغبة إلى متابعة التجوال ومشاهدة الأحوال ، وعاد أدراجه راضياً عن نفسه تعلوه الأقذار وتنبعث منه الروائح الكريهة .

ولقيه فى الطريق أحد الفلاحين فقال له ماذا وجدت يا صاح فى قصر سيدك الفخم أثناء تنقلك فى أبهائه ، فقد سمعت أن حجرات القصر حافلة باللآلىء وعقود الزبرجد والمرجان وكل ما تشتهيه العين ويمتع النفس ؟

فنخر الخنزير نخراً عالياً وقال « هذا هراء فانى لم أر هناك شيئاً ذا قيمة ولم أجد إلا الأقذار والقمامات والنفايات ، وإنى واثق مما أقول فقد أطلت البحث وأمعنت النظر ولم يند عن علمى شيء » .

ويختم كريلوف هذه الخرافة بقوله « الله يعلم أننى لا أود أن أوجه إلى أحد كلمة نابية ، ولكن خبرونى هل أستطيع أن أمسك عن اطلاق كلمة خنزير على الناقد الذى حينما يتصدى للنقد لا تقع عينه إلا على العيوب والمآخذ والأخطاء ؟ » .

وفى خرافة « مجلس الفيران » يسخر كريلوف من الشروط التى تضعها بعض الأمم فى الترشيح للمجالس النيابية والهيئات التشريعية ومختلف اللجان والمجالس .

فقد أرادت الفيران أن تصلح أحوال العالم وتجعل الدنيا دار سعادة ورغد وأن تكيد للطباخين ومدبرات شؤون المنازل ويتعاونوا على التشهير بهم والتحذير منهم ، وأعلنت الفيران عن عقد مجلس للمداولة ولكنها اشترطت شرطاً لا يخلو من الغرابة ، وذلك الشرط هو أنه لا يسمح لأى فأر بحضور هذا الاجتماع إلا إذا كان طول ذيله يعادل طول جسمه جميعه ، وعند الفيران أنه كلما طال ذنب الفأر دل ذلك على غزارة علمه ووفرة فضله ورجحان عقله ، ولكن هل هذه الفكرة صحيحة أو ملفقة ؟ ونحن البشر كثيراً ما نقيس رجاحة العقول بطول اللحى ونحكم على الناس بما يرتدون من الثياب .

وقضت الفيران بأن لا يحضر اجتماع المجلس إلا الفيران الطويلة الأذناب ، وتبعد الفيران التى لا أذناب

حتى ولو كانت فقدت أذنابها فى معركة مشرفة وصراع من أجل المبادئ السامية والمثل العليا ، وقد عد المجلس فقدان الذنب دليل نقص الذكاء وضعف الكفاية ، ودعى المجلس إلى الانعقاد فى ساعة السحر ، وجلس الرئيس على المنصة وفتحت الجلسة ، واتفق وجود فأر بلا ذنب بين الأعضاء الحاضرين ، فهمس عضو صغير السن فى أذن فأر قد ابيض شارباه قائلا « كيف سمح لهذا الفأر المجرد من الذنب بحضور الاجتماع ، وماذا أصاب القانون ؟ ادع الحجاب ومرهم باخراج هذا الفأر ، فنحن لا نستطيع الحضور مع الفيران المجردة من الأذناب ، وهل تظن هذا الفأر يصلح لشىء ؟ إنه لم يستطع المحافظة على ذنبه ووجوده بيننا مفسدة أى مفسدة » .

فأجابه الفأر العجوز « صه ! فإنى أعرف ذلك كله ولكن هذا الفأر من أصدقائى » .

وفى خرافة « العقاب والدجاج » يشير إلى النقاد المحدودى الآفاق الذين يتصدون لنقد المؤلفين العبقريين الذين لا يحسنون فهمهم ولا يستطيعون التحليق فى جوهم فقد ازدهت العقاب قوته فى صباح يوم أضحيان من أيام الصيف فأخذ يحلق فى السماء ويذرع فيها طولا وعرضاً ورنق بجناحيه حيث يومض البرق وتسرى السحب ، وفجأة حط من سماواته العالية بأجنحته الملكية فوق سقيفة متواضعة ، والعقبان لا تجثم فى العادة إلا فى شوامخ القمم وسوامق السرح ، ولكن الملوك لهم بدواتهم وربما آثر العقاب الهبوط فوق هذه السقيفة تشر يفالها ورفعاً لشأنها ، وربما لم يجد سرحة لائقة بمقامه أو ذروة عالية ملائمة له ، ومهما يكن من الأمر فلسنا على بينة من معرفة الأسباب التى دعته إلى ذلك ، ولحظت ذلك دجاجة كانت تتردد على الأنبار المجاورة ، فقالت لإحدى صديقاتها « ما سر هذا الاحترام الذى تبديه الطيور لهذا العقاب ؟ إنه يطير مثلنا وفى استطاعتى أن أرفرف بجناحى فوق السقيفة كما يفعل ورجائى ألا نظن فى المستقبل أن العقاب أجل منا شأناً وأقدر منا على التحليق ، وساقاه أقصر من سيقاننا وعيناه أضيق من عيوننا ، وهو قريب الشبه من الدجاج ، وها نحن نرى أنه يطير فى المستوى الذى نطير فيه » .

وسمع العقاب حديثها التافه الأجوف فأجاب قائلا « إنك على حق ، ولكن للأمر جانباً آخر ، فالعقاب قد يطير فى مستوى السقيفة الذى تستطيع الدجاجة أن ترتفع إليه ، ولكن لم يعرف قط يوماً أن دجاجة استطاعت التهويم فى الجواء العالية » .

وينهى كريلوف هذه الخرافة بقوله « حينما يروقك أن توجه النقدات إلى من هم خير منك فلا تكدن خاطرك فى البحث عن أخطائهم ولكن حاول وأنت ترى ما فى أعمالهم من عظمة وقوة وحكمة وأن تتعلم — إذا استطعت — كيف تسمو إلى قممهم العالية ! » .

وكان كريلوف يعتقد أن المبادئ السامية لا تثمر ثمرتها وتؤتى أكلها إذا قام بالإشراف على تنفيذها من لا يؤمنون بها أو من تتعارض مصلحتهم مع الأخذ بها ، فهم لا يجدون صعوبة فى تأويلها حسب أهوائهم ولا يعدمون وسيلة للإفلات من أحكامها ، وقد أوضح ذلك فى خرافته عن « مؤتمر الوحوش » .

فقد سأل الذئب الأسد أن يوليه أمر الخراف ليصلح من شأنها وينهض بها ، وسعى له صديقه الثعلب عند زوجة الأسد باللفظ اللين والثناء الجم ، ولكن لما كانت سمعة الذئب مريبة سيئة ، فقد رؤى أن تدعى رعية الملك إلى مؤتمر للنظر فى الأمر منعاً للأقاويل السيئة والاشاعات الكثيرة ، وحضرت الوحوش جميعها ، وعرض عليها الأمر ، وأخذت الأصوات . وروعى فى أخذها مقام معطى الصوت ومكانته ، فلم يرتفع صوت واحد بالمعارضة فى اختيار الذئب ، ولم تقل كلمة واحدة تعوق إناطة الولاية به . ولذا قرر المؤتمر بالاجماع اختياره ، ولكن أين كانت الخراف ! ولماذا لم يرتفع لهم صوت ولم تسمع منهم كلمة ! لقد

استدعى الكثير منهم ولكنهم فى النهاية أهمل أمرهم وتركوا وشأنهم ، وقد كانوا هم أول من يجب الاهتمام بمعرفة رأيه والحصول على موافقته !

وتناول كريلوف فى خرافاته الحماقات الإنسانية السائدة فى كل العصور ، من ذلك مسألة محاولة الإنسان التنصل من عيوبه وأخطائه وذنوبه والحرص على إلقاء تبعتها على الغير ، وبخاصة ذلك المخلوق البائس التعس المسمى « الشيطان » وقد روى كريلوف الخرافة الآتية ليوضح رأيه وعنوانها « افتراء » وهو يقول فيها إنه فى بعض بلاد الشرق الأقصى كان يعيش أحد البراهمة ، وكان فقيهاً باقراً ، ولكنه برغم ذلك كان سيىء السيرة والسريرة ، وحتى البراهمة مثل سائر الناس فيهم البرهمى الصالح الصادق وفيهم البرهمى الكاذب الدعى ، وكان يضايقه من زعيم الطائفة البرهمية تشدده وفرط إخلاصه ويقظته ، فلم يكن أحد من البراهمة يجترئ على الاستهانة بأصول العقيدة وتقاليد الطائفة .

وجاء يوم من أيام الصيام عند البراهمة ، ولم يكن صاحبنا يستطيع الصبر على آلام الحرمان ، فاستحضر بيضة من بيض الدجاج ، ولما مضى موهن من الليل أشعل شمعة وأخذ يدنيها من البيضة لينضجها ، وسره أن يتغفل الشيخ الأكبر ويخدعه ، ولكن الشيخ الحبر كان ساهراً يتهجد ، فأحس الحركة ، ولمح الضوء الضئيل ، وأقبل خفية ليتبين جلية الأمر ، ولما فاجأ البرهمى الزائف قال له « لقد كشف أمرك يا صاحبى الملتحى ولن تخدعنا بعد اليوم ! » .

وأدرك البرهمى عظيم ذنبه ، ولكنه لم يجد سبيلا للإنكار فقد كان الدليل قائماً وكانت المفاجأة مذهلة فقال متوسلا « سامحنى أيها الأب الصالح ، واغفر لى ذنبى فقد كدت أنكر نفسى ، ولقد استغوانى الشيطان وأغرانى بارتكاب المحظور ، وزين لى أكل البيض » .

وهنا انبعث صوت الشيطان من أحد أركان الحجرة وهو يقول « ألا تخجل أيها الرجل ! أنكم معشر البشر تلقون علينا تبعة ذنوبكم وجرائمكم ، على حين أننا نحن الشياطين نتعلم منكم فى كل يوم أشياء كثيرة جديدة ، وأنا لم أكن أعلم حتى اليوم أن البيضة يمكن انضاجها على الشمعة » .

ومن خرافاته البديعة خرافة « النسر والعنكبوت » وقد وصف فيها تعلق العاجزين الخاملين بمناكب العظماء البارزين ، ويقول فيها « إن النسر حلق فى أعالى الفضاء ومر فى طيرانه فوق قمم جبال القوقاز ، ثم حط على شجرة أرز قديمة العهد ، وأخذ يجيل الطرف فى المنظر البديع الممتد أمام عينيه ، وكان يشرف من عليائه على الغابات المائجة بالخضرة والأنهار الملتوية المتعرجة ، والمراعى الواسعة والبرارى الفيحاء ، وحمد الله الذى منح جناحيه القوة التى تمكنه من بلوغ هذه الأعالى السامقة والتحليق فوق تلك المرتفعات الشامخة ، ومشاهدة روائع الطبيعة وجمال الكون .

وسمعه العنكبوت وهو يردد الحمد والشكر ، ويتحدث بنعمة الله عليه ، فقال له « لست وحدك يا صديقى الذى تفرد بالتحليق فى الأعالى وارتقاء الذرى الرفيعة ، وها أنذا جالس فى مكان لا يقل ارتفاعاً وسمواً عن مكانك » .

وحول النسر بصره نحو الناحية التى أقبل منها الصوت ، فلمح العنكبوت متعلقاً بأحد أغصان الشجرة الفارعة ، وقد أخذ يمد نسيجه وينصب شباكه كأنه يحاول أن يسد مطلع الشمس .

فقال له النسر « ولكن كيف جئت إلى هنا ؟ لقد ارتقيت مرتقى صعباً ، وتجاوزت حدود قدرتك ، ولا طاقة لك على تسلق هذه الأعالى الصاعدة ، وليس لك أجنحة تطير بها ، ومن المؤكد أنك لم تأت إلى هنا زاحفاً ، وأنا لا أجترئ على مثل ما أقدمت عليه ، فخبرنى كيف وصلت إلى هنا » .

فأجاب العنكبوت قائلا « الأمر هين ، لقد تعلقت بجناحيك ! فأنت الذى حملتنى إلى هنا ! وقد استمسكت

بذيلك ، ولكنى أستطيع الاعتماد على نفسي ، ولست فى حاجة إليك فلا تتأبه علي وتواضع فى حديثك معى ! » .

ولم يكد ينبس بهذه الكلمات الأخيرة حتى هبت عاصفة سريعة هوجاء ظاحت بصاحبنا الفخور المتعالى وألقت به إلى حضيض الوادى ، وهذه خاتمة الأدعياء المغرورين الذين يسيرون فى ركاب العظماء ، ثم ينتفخون وينسون عجزهم وصغر همتهم ، ويسلكون أنفسهم فى عداد العظماء والأعيان حتى تحين الظروف التى تكشف ضعفهم وتفضح عجزهم وقصورهم .

ولكريلوف قدرة خارقة على إيجاز الموقف واختصاره فى صورة مكتملة لامعة وكلمة وجيزة جامعة مانعة ، من أمثلة ذلك خرافته الذائعة عن « الفلاحين والنهر » وفيها يصف ما يلقاه الفلاحون من ظلم الحكام وعسف عمال الحكومة ، وهذه ترجمتها المنثورة :

فى ذات يوم ضاق صدر الفلاحين بما يلحقهم من الاضطهاد وما يصيبهم من الإفساد والنهب والسلب والسرقات وابتزاز الأموال واغتصاب المحاصيل ، وقد كانت الجداول والقنوات والترع تطغى على طرقهم ، وتعرقل أعمالهم ، فصح عزمهم على تقديم شكوى للنهر الأعظم الذى تصب فيه هذه الجداول والقنوات والترع ، وكانت أسباب الشكوى قوية واضحة ، فمحاصيلهم تنهب وتسرق ، وطواحينهم تطغى عليها المياه ، ويختطف التيار الجارف الكثير من ماشيتهم ويغرقها ، ويحدث ذلك كله والنهر يجرى فى تؤدة ووقار ، وتقوم على ضفتيه المدن الكبيرة العامرة والحواضر الزاهرة آمنة مطمئنة ، وكانت الناس لا تظن أن الترع والقنوات والجداول تعبث بالفلاحين هذا العبث المؤذى وتستخف بهم هذا الاستخفاف المزرى ، وجرى فى وهم الفلاحين أن النهر سيعوضهم عما نزل بهم من الخسائر الفادحة والنكبات المتلاحقة ، فلما اقتربوا من شطآنه أومأ إليه من كان فى طليعتهم ، فشخصت أبصارهم صوب النهر برهة من الزمن ، فرأوا أكثر ما فقدوه طافياً فوق متنه ، فالشكوى إذن جهد ضائع وعمل عقيم ، وألقى كل منهم نظرة على النهر المتدفق الجارى ، ثم تبادلوا النظرات ، وهزوا رؤوسهم ، وعادوا أدراجهم .

وتجاذبوا وهم عائدون فى الطريق أطراف الحديث وتوافت آراؤهم على أنه لا فائدة من انفاق الجهد فى مقاضاة الصغير إذا كان يقتسم جميع ما ينهبه ويسلبه مع الكبير العظيم .

ووصف كريلوف للفلاحين بأنهم « هزوا رؤوسهم وعادوا أدراجهم » أبلغ فى تصوير طبيعة الموقف ومأساة الحادثة من الخطب الطوال ، وأمثال هـذه « القفلات » كانت تروق لافونتين .

وفى خرافة « البركة والنهر » يصف الفرق بين الحياة الخصبة المنتجة والحياة البليدة الخاملة العقيم ، ويقول فيها « جاورت بركة نهراً عظيما ، وقالت له يوماً « كلما أبصرتك رأيتك جم الحركة ، كثير النشاط ، دائم التدفق والجرى ، لا تريح ولا تستريح ، وإخالك قد استنفدت قواك ومسك اللغوب ! وفضلا عن ذلك فانى كلما تأملت مسيرك رأيت السفن المشحونة بالأحمال الثقيلة والأطواف العديدة والزوارق والقوارب الكثيرة تشق عبابك وتحملها متون أمواجك ، فمتى تسأم هذه الحياة الراتبة المملة ؟ إنى أوثر أن تغيض مياهى على أن أحتمل مثل هذا ! أتستطيع أن تريني حياة هادئة وادعة مثل حياتى ؟ وأنا أسلم بأن أفراداً قلائل يعرفوننى ، وأن اسمى لم يكتب فى المصور الجغرافى ولم يقرع الأسماع ويملأ البقاع ، ولكن هل المجد والشهرة من الأشياء التى تسر القلب ، وتقر بها العين ؟ إنى أنعم فى ظلال الراحة ، وأعيش رخية البال هانئة خلية ، لا يعكر صفو مياهى مجاديف القوارب ولا يثيرها مرور السفن ، وقل أن تخفق فوق صدرى ورقة ذابلة من أوراق الأشجار ، وأنا فى أمن من عصف الرياح ، وطوارق الهموم ، ولم يتح لأحد ما أتيح لى من الحظ الحسن ، والعيش

الرغيد ، وجميع من حولى يبذلون الجهد ، ويتجشمون الأهوال ، وأنا أستمتع بالهدوء والاستقرار وأحلم فى عزلتى الأحلام الفلسفية » .

فأجابها النهر « من كان فى مثل تضلعك من الفلسفة لا يجهل أن الماء لا يحتفظ بصفائه ونقائه إلا إذا كان جارياً متدفقاً ، ولئن كنت قد أصبحت نهراً عظيماً ضافى الأمواج طاح العباب فانى لم أبلغ ذلك بالتمنى والأحلام ، وإنما باقتحام الأخطار والضرب فى صدور الصعاب ، وما أبذل من جهد أو ما أقوم به من حركة يزيد مياهى غزارة وصفاء ، ويحمل اليمن إلى أرجاء العالم ، ويفيض الخير والبركات ، ويذيع فضلى ، ويعلى بين الناس شأنى ، ويكسبنى السمعة الحسنة والذكر الباقى ، وربما مد فى عمرى قروناً أظل خلالها أخصب الجديب وأقرب البعيد على حين يكون اسمك قد نسيه الناس وأصبح نكرة غير معروف » .

وقد تحققت نبوءة النهر ، فهو لا يزال يجرى فى وقار وجلال برغم علو السن وقدم العهد ، أما البركة فقد ضحل ماؤها وطحلب ، واستأسد فيها النبت واغلولب ، وجفت وذهب أثرها ، وهكذا من يبخل بفضله يستغن عنه ويذمم ويعلوه الصدأ ويدب فيه البلى .

وهو يضرب للغنى الذى ينفق المال فى غير وجهه مثل السحابة الوطفاء التى مرت فوق أرض قد تكشفت وصوح نبتها وأمحلت ولم ينهل ماء السحابة لىروى النبت الذى جف وييبس بقطرة واحدة ، ولما أشرفت على البحر اللجى الملتطم الأمواج استهلت بوادرها ، وفاخرت الجبل الشامخ بكرمها الواسع وعطائها العميم ، فأجابها الجبل « ما أراك فعلت شيئاً يستأهل الفخر ويستحق الحمد ، فليس البحر فى حاجة إلى ودقك المنهل ومائك الغزير ، وكان الأخلق بك أن تروى الحقول والمزارع لتجنبى البلاد خطر المجاعة وشر المحل والجدوبة » .

وفى خرافة « زوج الثلاثة » ينتقد كريلوف الزواج بأكثر من امرأة ويصف ما يعانيه الزوج فى هذه الحالة من العذاب الذى لا يعادله عذاب ، فقد كان توماس براون متزوجاً من المرأة الصالحة نانسى ، ولكنه لم يكتف بها وتزوج بالسيدة جين والسيدة آن ، وسمع الملك بقصة زواجه ، وكان الملك صارماً لا يتساهل فى انزال العقوبة بمن يخالف الشريعة ويخرج على العرف المتبع . فأمر بإلقاء القبض على الرجل الذى اتخذ له ثلاث زوجات وأصدر أمره إلى القضاة والمستشارين بالبحث عن العقوبة التى تجعل هذا الرجل عبرة لغيره من الذين يفكرون فى الخروج على القوانين المرعية ، حتى لا يصبح قدوة وقال لهم الملك إنه إذا لم تأخذ العدالة مجراها ويقضى المجلس بإنزال عقوبة رادعة بهذا الرجل فإنه سيصدر حكماً باعدام أعضاء مجلس القضاء جميعاً ، وأكد لهم أنه جاد فى الموضوع وأنه يعنى ما يقول ، ففزع القضاة وهمهم الأمر وأمضوا ثلاثة أيام بلياليها يبحثون ويتناقشون وذهبوا مذاهب شتى وفكروا فى عقوبات مختلفة ، ولكن أى العقوبات المقترحة أقدر على منع الشر واستئصاله من جذوره حتى يرتدع هذا الخارج على التقاليد والمخالف لأحكام الشريعة ؟ وأخيراً لاح لهم نور الحق ، وأصدروا حكماً توافت عليه آراؤهم واجتمعت كلمتهم ، ودعى الرجل ليسمع الحكم ، وقيل له إن المحكمة باجماع الآراء رأت أن العقوبة الرادعة لأمثاله هى أن يظل محتفظاً بزوجاته الثلاث .

وعجب الناس فى بادئ الأمر لهذا الحكم وشاع بينهم أن الملك سيأمر بإعدام القضاة ، ولكن لم يكد يمضى أسبوع حتى كان البائس توماس براون قد فنيت حيله وضاق ذرعه ولم يجد له مخرجاً من ورطته إلا بالانتحار . . .

ومن ذلك اليوم لم يقدم أحد من رعية الملك على الزواج بأكثر من واحدة .

ويرى كريلوف أنه من الحماقة أن نزدرى النصيحة التى يقدمها لنا من هو أقل منا شأناً ويرى من سداد

الرأى تقليب هذه النصيحة على وجوهها فقد تنطوى على تحذير نافع أو توجيه سليم وعنوان الخرافة التى ضمنها هذا المغزى هو « العقاب والخلد » ويروى لنا فيها أن العقاب جاء مع أنثاه إلى غابة فى ناحية بعيدة عن بنى الإنسان ، وفى صميم الغابة حيث الأشجار المتكاثفة المتوشجة الفروع اختار العقاب بلوطة سامقة مديدة الأغصان ، وابتنى له عشاً فى أسمى فروعها ليربى فيه صغاره المنتظر أن ترزق بهم أنثاه فى خلال أشهر الصيف .

ونمت إلى الخلد هذه الأخبار فاجترأ على أن يحذر ملك الطيور قائلا له إن هذا المكان غير أمين ، وإن جذور البلوطة قد عاث فيها البلى وإنها معرضة للسقوط فى وقت قريب ، وإن من الخير له أن يجنب صغاره المنتظرين وأنثاه أخطار كارثة سقوط البلوطة .

فكبر الأمر على العقاب وعز عليه أن يتقبل النصيحة من الخلد وقال فى نفسه متى كانت العقبان تتلقى النصائح من الحيوانات الضئيلة الشان ؟ ألا يدرى هذا الخلد أن العقبان أبعد منه نظراً وأسد رأياً وأغزر علما ؟ وكيف يبيح لنفسه التدخل فى أمرى وأنا ملك الطيور ؟ ولم يعبأ العقاب بنصيحة الخلد ووضعها دبر أذنه ، وأخذ يواصل العمل فى بناء العش بأعلى الشجرة وجاءت له ملكة الطيور بأفراخ حسان .

وفى فجر أحد الأيام عاد العقاب إلى وكره حاملا الزاد لصغاره وأنثاه ، فاذا به يرى البلوطة وقد تهاوت من عليائها وتناثرت فروعها ، ولقيت أسرته مصرعها فى أثناء سقوط البلوطة ، فاشتد به الخطب ، وبرح به الأسى ، وأخذ يندب سوء حظه ، ويشكو الضربة القاصمة التى أصابت كبرياءه لأنه رفض النصيحة التى قدمها له الخلد ، وجعل يردد قوله إنه لم يكن ينتظر بحال أن تكون نصيحة الخلد ذات قيمة .

وسمع الخلد المتواضع حديثه فقال له « إن احتقارك لشأنى جعلك لا تفكر فى نصيحتى ولا تلقى بالك إلى أننى مقيم فى جحر متواضع على مقربة من جذور الأشجار مما يجعلنى أعرف بأحوالها وبما يطرأ عليها من الوهن ويصيبها من البلى » .

وقد تناول كريلوف فى خرافاته بعض الأحداث السياسية الكبرى التى عاصرته مثل الثورة الفرنسية وغزو نابليون لروسيا ومؤتمر فينا ، وفى الخرافة الآتية وعنوانها « ابن الأسد » يعرض بتربية القيصر الإسكندر الأول وأستاذه لاهارب :

وهب الله الأسد ابناً كان يتلهف عليه ، والحيوانات التى قد يكون لك بعض الإلمام بشؤونها وأساليب حياتها ليست مثلنا ، فطفلنا الذى لم يتجاوز العام ضعيف الإدراك صغير الجرم — سواء فى ذلك أبناء الملوك وأبناء الشعب — والأسد الذى يبلغ عمره عاماً — كما تعلم — يكون قد فارق القماط وكبر عن الطوق .

وقد أخذ الملك يفكر ويروى كيف ينشىء ابنه نشأة تبعد عنه الجهل ، وتبقى له شهرته الملكية نقية غراء ، فاذا ما تسنم الطفل العرش وألقيت إليه مقاليد الأمور لا يلوم الناس الأب على ما قد يقع فيه الابن من الأخطاء .

فمن الذى يأمره ويكلفه أو يرغمه على تعليم نجله كيف يعرف الواجبات الملكية ويحسن النهوض بها ؟

أيعهد فى ذلك إلى الثعلب ؟ فالثعلب بارع متوقد الذكاء ، ولكنه ولوع بالكذب ، متهالك على الرياء والنفاق ، ومعاشرة الكذابين المنافقين تجلب المتاعب وتجر المشكلات ، وليس هذا من شيم الملوك وشمائل العظماء !

وخطر له أن يعهد فى ذلك إلى الخلد لأنه يحسن تنظيم بيته ولا يخطو خطوة إلا وهو على بينة من أمره ، وهو يتولى بنفسه تنظيف طعامه وإعداده ، وموجز القول أن جميع التقارير تثبت أن الخلد حيوان بارع فى صغيرات الأمور ، ولكن لنتمهل فى الأمر ! فحقيقة أن الخلد يرى ما تحت أنفه بوضوح ودقة ، ولكنه

لا يرى أبعد من أنفه ! ومذهب الخلد مذهب نافع ، ولكنه لا يصلح لك ولا لى ، ومملكة الأسد أوسع نطاقاً من أكمة الخلد .

ولماذا إذن لا يجرب النمر !

فالنمر شجاع مقدامة ، وقوى مضبور الخلق ، ويستطيع أن يعلمك الحركات الحربية ، ولكنه لا يفقه شيئاً فى السياسة ، وليست عنده أى فكرة عن حقوق الإنسان المدنية ، والملك يلزم أن يكون سياسياً وقاضياً ، ومن خطل الرأى أن يكون محارباً فاتكاً فحسب ، والنمور لا تتقن سوى فن الحرب ، فليس لأبناء الملوك أن يتخرجوا على النمر ، وموجز القول أن الأسد فكر فى جميع الوحوش ، فوجد أنها كلها مفرطة الجهل ، ضعيفة التفكير ، قليلة الخبرة ، حتى الفيل الذى اشتهر فى الغابات بالحكمة كما اشتهر أفلاطون قديماً بالفلسفة بدا له سخيفاً شديد الغباء .

ولحسن حظ الملك — أو لسوء حظه فإن علينا أن نتبين ذلك — علم ملك النسور بما يعانيه ملك الوحوش من هم وتسهيد ، وكان دائماً يظهر المودة والعطف لصاحب العرش المجاور لبلاده ، وعزم على أن يقوم لصديقه بخدمة ملكية ليدل على عظيم إخلاصه وصادق وفائه ، فالتمس من الملك أن يتولى هو بنفسه تعليم نجله ، فعظم سرور الأسد ، وشكر له هذه اليد الكريمة ، وأكبر هذه الأريحية ، وأى تشريف أعظم من أن يقوم أحد الملوك الغر الميامين بتعليم ولى العهد !

وبادر ملك الوحوش إلى ارسال نجله ليتلقى فى مدرسة ملك النسور أصول الحكم وقواعد السياسة .

ومر عام ، وانصرم عامان آخران ، وكان القادمون من مملكة النسور يحملون أحسن الأنباء عن نجل الأسد ، ويثنون عليه أطيب الثناء ، ويتحدثون عن تقدمه السريع فى الدراسة وكفايته ونبوغه ، وكانت الطيور جميعاً تردد ذلك .

وأخيراً أتم الغلام دراسته ، وفاز بالإجازة العلمية التى تدل على التفوق والامتياز ، واستقدمه والده ليسر برؤيته ، ويبلو علمه وقدرته .

وعاد الابن بعد طول الغياب والتضلع من العلم ، ودعا الملك الوحوش جميعها إلى الحضور .

فلما اجتمعت الوحوش وأخذ كل منها مجلسه قبل الملك ابنه وعانقه وخاطبه قائلا : « ولدى الحبيب ، أنت الذى ستخلفنى وتقوم بعدى بأعباء الملك وتدبير أمور الرعية ، وإنى هامة اليوم أو الغد ، وأنت يا ولدى فى مقتبل العمر وعنفوان القوة والشباب ، وأنا ألقى إليك مقاليد الحكم فى سرور وارتياح ، وأملى أن تحسن السيرة وتسوس الناس خير سياسة ، وأود أن تحدثنى أمام هذا الجمع الحاشد من رجالات الدولة وأعيان الوحوش عن العلم الغزير الذى حصلته والمعرفة التى اكتسبتها والخبرة التى أفدتها ، وكيف تصلح من شؤون أمة الوحوش وتنهض بها وتعلى من شأنها » .

فأجاب الشبل « أبت العزيز ، لقد اخترت لى فأحسنت الاختيار ، فقد درست دراسة لم يتح مثلها من قبل لأحد من الوحوش ، وعرفت ما غاب عنهم ، ومعرفتى بالطيور وعاداتها وأساليب حياتها وتقاليدها المتبعة ليست لها نظير ، وأنا من أعرف الناس بطرق تحسين ذريتها وترقية أنواعها ولا يند عن علمى فى هذا الصدد رأى قديم أو حديث ، وعندى إحاطة تامة ومعرفة واسعة بمراجع أمثال هذه البحوث ، وإنى أغتنم هذه الفرصة لأقدم لك الإجازات العلمية التى تدل على توفيقى وتشهد بتفوقى » .

وناول والده تلك المجموعة من الأوراق التى يسمونها الإجازات العلمية ، والتى يقال عنها إنها تزن قيمة تفكير الإنسان وعلمه وزناً دقيقاً صادقاً ، واسترسل يقول « إنى أجيد معرفة مسالك النجوم ، وإذا صحت نيتك على أن ألى حكم هذه الأمة فأول عمل سأقوم به هو أن أحمل الوحوش على ابتناء الأعشاش والوكور » .

فأن الأسد وتأوه ، وشاركته فى ألمه جميع الوحوش فتنهدت وتوجعت ، وهز الجميع رؤوسهم من الخجل والاشمئزاز ، وأدرك الملك المتقدم فى السن حقيقة الموقف بعد فوات الأوان .

فدراسات نجله جميعها غير مجدية ، وكلماته لا تدل على الحكمة وأصالة الرأى وصدق النظر ، فما حاجة الوحوش إلى المعرفة الواسعة بالطير وعاداتها ؟ والذى تعده الطبيعة ليحكم الوحوش لا يحتاج إلى أن يتعمق فى علم الطيور ، وأسمى فن يتاح للملك اتقانه هو أن يفهم حاجة بلاده ويعرف كيف يصلح من أمرها ويعالج مشكلاتها وينهض بها .

ولما كان القائد الروسى الشهير كوتوزوف يطارد جيش نابليون فى أثناء عودته من روسيا أرسل إليه كريلوف خرافة « الذئب فى بيت الكلاب » وقد قرأها القائد على رجاله ، ومضمون الخرافة أن الذئب تسلق حائط حظيرة الغنم وسقط فى بيت الكلاب التى تتولى حراستها فاضطربت الكلاب واشتد نباحها وتحفزت للوثوب عليه ، وأقبل الحراس وهم يظنون أن لصاً قد تسلل إلى الحظيرة ، فلما وجدوا الذئب وأحاطوا به خاطبهم قائلا إنه صديقهم القديم وإنه لا يقصد سوءاً وإنما جاء ليؤكد لهم عهد الصداقة ويعدهم ، وعداً صادقاً بعدم الاعتداء على الخراف ، فتصدى له رئيس الحرس قائلا « إذا كان شعرك أشمط فإن شعر رأسى قد علاه الشيب ، وقد عرفت طبيعة الذئاب ولا أقر هدنة معها ، وأطلق كلابه على الذئب ، وحينما وصل كوتوزوف وهو يقرأ الخرافة إلى قول رئيس الحرس « إن شعر رأسى قد علاه الشيب » كشف القائد الكبير عن رأسه وأظهر لجنوده خصائل شعره البيضاء .

وخرافات كريلوف علاوة على ما تضمنته من حكمة ومعرفة عميقة بطبائع البشر تعد من أرقى نماذج الشعر الروسى التى لا يمكن نقلها إلى أى لغة دون أن تفقد الكثير من الخصائص التى امتازت بها كما يؤكد لنا برنارد بارز الذى تولى نقلها نظماً من اللغة الروسية إلى اللغة الإنجليزية .